مذكرّات جامعي

الأستاذ الدكتور مالك المطلّبي
كلية الفنون الجميلة - جامعة بغداد

□ المعرفة السحريّة:

حين أستبدل بالعقود الزمنيّة الستة ، التي تدفّقت فيَّ وحولي، بإيقاع مضطرب. مكوّنةُ ما أسمّيه تشغيل الذات المعرفيّة، فسوف تكون "جامعة بغداد" هي الاداة البارزة في هذا التشغيل.

ومن زائد القول أَنْ أُشير الى أنَّ المعرفة الاولى التي شكّلتْ وعيي ، هي المعرفة السحرية الانزلاق الروحيّ في لا منطق الاسرار الاولى للوجود، وما أَثرى تلك المعرفة، ثلاثة أمور:

أوّلُها : أنّ ثقافتي كانت لغويةً صرفاً. حيث يكون شكل اللغة هو المضمون. وقد حدث لي ذلك حين تتلمذت لنحوي مجهول هو أبي.

وثانيها: أَنَّ البئة التي أحتضنت هذه الثقافة كانت الماء.

وثالثها: أَنَّ المورِّثة الثقافية(الجينة) لشرقيّ عربيّ، مثلي، كانت جينة مقذوفة من " الميتافيزيقا" حيث تُعطي الوجود ظهركَ أبدا.

واللغةُ والماء والميتافيزيقا هي التي تشكل بنية المعرفة السحريّة.

□ المعهد العالي للغات الاجنبية

انتقلت ،بعد عبور الحاجز السحريّ، الى مكان العقل: جامعة بغداد .وقد بدأت تلك الجامعة بإزالة قشرة السحر. وتنظيف الحاويات النفسيَّة المليئة بالطواطم والمقدّسات والخيالات. استعداداً لملئِها بالعرفة الجديدة: المعرفة

العقلّية، أو على نحو أدقّ، المعرفة المسَّببَة أو المنطقية. وتعبيراً عن القوة السحريّة فينا ، وضعت في بطاقة آختيار الفروع للقبول في جامعة بغداد، وضعت علامة(✓) أمام حقل (معهد اللغات العالي للغات الاجنبية) فرع اللغة الانكليزية ، بكونه الاختيار الأوّل . وقد تمَّ ظهور آسمي من بين المقبولين في ذلك المعهد (الذي سيُصبح،في ما بعد، كليّة اللغات) وكان المعهد يفرض على الطلبة المتقدمين، فضلاً عن الشهادة الثانوّية ، أجتياز أختبار القبول التحريريّ، وقد تم لي ذلك. ولكن ! وعلى وفق قاعدة بناء الذات الشرقية من الخارج، تجنُّباً لاستقلالها، اعترض أخي ومعلمي الثاني الدكتور عبد الجبار المطّلبي، على دخولي ذلك المعهد، لا لأنّه كان يعترض على دراسة اللغة الانكليزيّة (وهو خريّج جامعة كمبردج) بل على الدراسة في كليّة تمنح شهادة البكالوريوس! وهكذا نقلَ أوراقي من المعهد العالي للغات الاجنبّية الى قسم اللغة العربية في كلية الاداب- جامعة بغداد. والطريفُ في الامر أَن الدكتور عبد الجبار المطّلبي سيصبح، بعد سنتين، عميداً للمعهد العالي للغات الاجنبّية، والاكثر طرافةً أنني سألتحق ثانية ، بعد أربعة وثلاثين عاماً بذلك المعهد، وقد اتّخذ تسمية الكليّة!

□ كلية الاداب- قسم اللغة العربيّة

في كلية الاداب ، في السنوات الاربع، التي قضيتها هنالك، لم تكن مادّة الدروس، هي التي تنمّي فهمنا أو إدراكنا، بل أداة توجيه دَفَّة تلك المادة: تدريسيّو تلك المواد.

لقد كان هؤلاء التدريسيّون من جبل الأْساتذة الذين يمكن وصفهم ، بدون مغالاة ، بجيل العمالقة.ولو أنّهم كانوا وسط نظام علاقات تاريخي، كما كان حال أقرانهم في مصر مثلا، لبلغوا آفاقاً أبعد مما كانوا علية! (مصطفى جواد ومهدي المخزومي وعلى الوردي وابراهيم الوائلي وابراهيم السامرائي وعبد العزيز الدوري وكامل مصطفى الشيبي وصالح أحمد العلي وعلي جواد الطاهر وخديجة الحديثي وعبد الجبار المطلبي...)

هؤلاء كانوا أهم من محتوى الدرس الذي يلقونه علينا ، ذلك لأْنهم كانوا يحيطون بالدرس ولا يُحيط هو بهم! علّمونا أَنَّ المعرفة ليست عملّيةً آنية، بل هي شكل من أشكال الحفريّات في جميع اتجاهات الزمان!

مرّةً كنت أسأل الدكتور مصطفى جواد عن مسألة نحوّية تتعلّق بصَرْف ماحقّة المنع: وهو أنّهم يقولون: " يُقسم الموضوع الى ثلاثة أقسام: أولاً،ثانياً...الخ" فلمَ صرفوا" أوّلاً" وحقُّها أن تكون ممنوعة من الصرف ،أي "أوّلَ"؟

فأجاب: أوّلُ الأمر لا تقُلْ يُقسم الموضوع الى ثلاثة أقسام بل قُلْ على ثلاثة أقسام"

خرقت هذه الاجابة الفرعية عادتي في الكلام المتداول، فقلت له :" يُقسم على ؟!"

فقال: " عندك صُرَّةٌ من النقود ، تقسّمها عليهم أو اليهم؟"

فقلت من فوري: "عليهم طبعاً"

فتابع: "أما مسألتك في صرف "أوّلاً" فهو أمرٌ مولّد. والفصيح أَنْ تقولَ: "يُقسم الموضوع على ثلاثة أقسام: أوّلها، ثانيها، ثالثها...الخ"

المُهِمُّ أنني ظللت بعد ذلك مستغرقا بقية اليوم وطَوال الليل، أقلّب الإجابة وأمحّصُها. وهذا هو جوهر الدراسة الجامعية: ألاّ تحفظ المعلومة بل تفكّر فيها. بعد سنوات طويلة في مختبر اللغة، انتهيت إلى إجابة مغايرةٍ لإجابة الدكتور مصطفى جواد. وبرغم أنَّ الإجابة الجديدة عن تلك المسألة النحويّة "مسألة صرف أوّل" هي إجابتي أنا، يظل الدكتور مصطفى جواد هو المحضّر لتطوير فعل الإجابة لديّ. على أيدي هؤلاء، إذن، تمكّنا من النفوذ من الحاجز الأكاديمي متجهين إلى منبت المعرفة الحرّة في الكاليريات والنوادي والاتحادات والروابط، لنغرف من معين المعرفة الفنية والادبيّة اللاأكاديميّة.

في سنوات دراستنا اللغة العربية ،في كلية الاداب، (١٩٦١- ١٩٦٥) كانت اللغات المجاورة في منهجنا هي اللغة الانكليزية وجوباً، واللغتان الفارسية والعبريّة أختياراً بينهما فأخترت مع الانكليزية اللغة العبريّة . وقد يشير هذا الآختيار، الى أنني لا أزال تحت سحر اللغة ، حيث سيأخذني درس العبرية، بأتجاه حفريّ" نحو نسق اللغة الاولى: التي انحدرت منها اللغة العربية والعبرية واللغات الاخرى التي تنتمي الى عائلة ما يعرف بـ"اللغات الساميّة".

عام١٩٦٥ تخرجت في قسم اللغة العربية –كلية الاداب، لأعود الى الدفقة السومريّة الاولى: الماء الميسانيّ، حيثُ عُيّنت مدرساً في متوسطة المشرّح الابتدائية للبنين". لكنَّ هاجس الطُّعم المعرفيّ الذي زرعتُه فيَّ جامعة بغداد، ظل يُربك الاستسلام للوظيفة والراتب والتأثيث الكليّ(المسمّى بالزواج) في التسعينات جرت محاولة لقبول الادباء في دراسات جامعة بغداد العليا، لكنَّ هذا المشروع لم يمضِ الى منتهاه، فقد بدأت قيود السلطة الواحدة. تكبّل حركة العارف: وتتجه به نحو محو ذاته لصالح" الاخ الكبير الذي يراقبك دائماً" إنَّ المعرفة بدون حريّة تُنتج الكائن المحُاكي. وهذا ما حدث فعلاً بعد ذلك إذْ نتج جيل الطابور ! الذي غطّى العراق من أقصاه الى أقصاه!

□ كلية الاداب- جامعة القاهرة

عام ١٩٧٦ وكنت موظفاً منسّباً الى وزارة الثقافة والاعلام أشغل منصب رئيس تحرير صحافة الاطفال (مجلتي والمزمار) قررت أنْ أشذ عن الطابور. أتخذت قراري بمواصلة دراستي، مُيمّماً وجهي شطر مصر.

كنتُ كغيري من العراقيّن، مزوّداً بكل المعرفة المصرية التي يقف وراءها ناشرون محتروفون.

يسلكون أيّ سبيل يتاح لهم لربط أي متكلم بالعربية، وفي أيّ صُقْع بهم. وكان على رأس قنواتهم" السينما" هل أستطيع القول الآن إن العولمة دخلت فينا عن طريق مصر؟!

وهكذا ذهبت الى مصر، وأنا أحمل في زوّادتي المعرفة المصرية- لا اللغوية والادبية والفنية حسب بل السياسيّة والتاريخية والاجتماعية أيضاً: فأسماء كتوت عنغ آمون ومحمد علي، ومصطفى كامل ، وسعد زغلول، والنحّاس باشا وطه حسين وتوفيق الحكيم وعباس محمود العقاد، وأحمد أمين ونجيب محفوظ وسيد درويش ونجيب الريحاني وفاتن حمامة وأحمد شوقي وحافظ ابراهيم وأحمد رامي ، وأماكن كمكتبة الاسكندرية، ودار الاوبرا والقاهرة القديمة والقلعة والسيدة زينب والحسين والازهر وخان الخليلي، وحركات كحملة نابليون وتحرير المرأة واكتشاف الخط الهيروغليفي: كانت تبدو لنا وكأنها أسماء عراقيّة.

على هذا حين وصلت القاهرة لم أحس بالغربة بل على العكس: صار ما أراه يقلّل من سطوع ما كنتُ أتصوّره!

حصلت في القاهرة على شهادة الماجستير ، وكان عنوان الأطروحة هو (الجملة الشرطية في الشعر العراقي المعاصر) وقد طُبعت بعد ذلك، في كتاب حمل عنوان(السياب ونازك والبياتي- دراسة لغوية). والخطأ التاريخي الذي ارتكبُته هناك. هو أنني لم أستثمر العَرْض الذي قدمه لي أستاذي الدكتور محمود فهمي حجازي، وهو أنْ أسافر الى " المانيا" في بعثة دكتوراه.

كانت لوائح الحُكم المغلق في العراق آنذاك تُجبرك على أَن تكون داخل ملفّاتها أبداً، فأضطررت لهذا، الى العودة الى بغداد، لأُدْرَجَ داخل ملفّ الايديولوجيا الغليظة ، التي بدأت تسرّب مصطلحاتها كصفٍّ من الطواطم، الذي ينبغي، أو على نحو أدقّ، يجب أن تسير في نسقه في أيّ زمان كان: مصطلحات كحرب التحرير، والقومية، والقضيّة المركزيّة والثورة والحزب القائد(الذي لم يعدله وجود) مُتوجّةً بمصطلح الضرورة. وهو في المصطلح الفلسفي مقوّم وجود الشيء والأصار عدما: ترغمك هذه الرموز الملفّقة على أنْ تستسلم للتسميّة لكي يكون لك وجود، أمّا وجودُك الطبيعي المشتقّ من الله فيصبح وجوداً منسياً!

□ الزمن واللغة

عام ١٩٨٥ تململت عبر حاجز الازغام داخل الدائرة المغلقة، مستثمراً بدء العمل بالترشيق الاصطناعيّ لمنتسبي دوائر الحكومة، فآلتحقت ثانيةً بكليّة الآداب لنيل شهادة الدكتوراه.

هكذا، بعد ربع قرن تقريباً ، عدت الى موطن المعرفة العقلية: جامعة بغداد. كنت أُحاول عبر هذه السنين تطوير مشروعي عن الزمن في اللغة العربية، وقد بدأت مقدّماته عندي في أطروحة الماجستير، ومن حسن حظي أنَّ الاشراف على رسالة الدكتوراه أُسند الى الدكتوره خديجة الحديثي. وهي برغم جديتها وثقافتها الاكاديميه التراثيّة العميقة، تترك للطالب، الذي تُشرف عليه حرية العمل التام. فما بالك اذا كانت تقف على مقدرة الطالب وإمكاناته التي أختبرتها من كثب؟

وأخيراً منحتني جامعة بغداد الشهادة التي ظننتها الاخيرة، شهادة الدكتوراه بدرجة امتياز عالٍ في علم النحو. وقد أدرجت لجنة المناقشة، في قرار منح الدرجة، ملاحظة، تقترح فيها أَنْ تتبنّى كلية الاداب قراراً بضمّي الى هيأتها

التدريسيّة ، لكن المشرفين التنفيذيّين على الكليّة ، آنذاك، كانوا مسيّرين بإرادة أحادية ، ولهذا غضّوا النّظر عن تلك الملاحظة، ومن ثَمَّ رفضوا انضمامي الى هيأة التدريس.

□ كلية الفنون الجميلة

كنتُ أُحسُّ، وأنا أعمل في وزارة الثقافة والاعلام، بصفة مستشار في دار الاطفال، كما لو كنت مهجّراً من داري في جامعة بغداد.

لكن في عام ١٩٨٩ التقيتُ،وكنت بصحبة المدير المفوّض لشركة بابل للانتاج التلفازي آنذاك، الاستاذ عمانوئيل رسّام ، التقيت عميد كلية الفنون الجميلة أستاذ الفن أسعد عبد الرزاق ، وحين عرضت علية العمل في كلية الفنون الجميلة، وافق بحماسةٍ شديدة، وطلب مني أن أقدم الطلب الان.

وهكذا عدت الى داري، وإن كان العوْد الى غرفة أخرى من هذه الدار. نقلت خدماتي نهائياً الى كليّة الفنون الجميلة، ولا أزال حتّى يومنا هذا، أعمل أستاذاً للغة والنقد الادبي هناك.

وصادف عملي في كلية الفنون الجميلة، بدء"حملة" الّدراسات العليا. وأقول"حملة" لان العراق كان يُحكم في جميع مستوياته بأسلوب"الفزعة" التي يُخلع عليها اسمٌ تأريخيّ برّاق هو الحملة. وقد كان سبب الحملة هجرة العقول الجامعيّة الى الخارج لتبليغ ذروة غير مسبوقة.

وقد شعر المسؤولون، حينها ،بخطر إفراغ الكليات من الاساتذة. فبدؤوا، بطريقة عشوائيّة، بإعداد خرّيجين ليكونوا أساتذة بدلاء،بأسرع وقت. وكان هؤلاء الخرّيجون يخضعون لشرط التزكية. والتزكية كانت الفعل الوهمي للولاء المطاق. ومنذ ذلك الوقت، لم يُعَدْ ينظر الى المستوى العلمي ومتطلبات الدراسة الاكاديميّة العليا بكونها المعيير المتبناة في كل الجامعات العالمية لقبول الطلاب المتقدمين. حاولت بجهد شخصيّ ، أنْ أفعل أي شيء لانقاذ ما يمكن إنقاذه في هذا الامر. فشاركت مع آخرين لديهم الحماسة ذاتها بتعميم المناهج الجمالية في الدراسات العليا في كليّةٍ تُعنى أساساً،بعلم الجمال، بعد أنْ أنهكتها المناهج التربويّة والنفسيّة . وبالفعل بدأت تلك المناهج بالسيطرة على مجرى الرسائل والاطاريح، غير أنَّ العملية برّمتها كانت تسير في الاتّجاه المعاكس. فلم أترك سوى أثر هنا، وأثرٍ هناك ! فليس

بالمناهج وحدها تُبنى الاطاريح! ولاشرَح هذا الامر،لأنَّ له صلةً بحياتنا الجامعيّة في هذه الايام الجديدة!

ينبغي لنا ،باديء ذي بدء، أَنْ نفرّق بين عنوانين داخل جامعة بغداد، وإن دُمجا في مسمّىً واحد، وهما العلوم الصرف والعلوم الانسانيّة[1]

وسأقصر كلامي على العلوم التي أنتسب اليها، وهي العلوم الانسانية.

أزمة العلوم الانسانية أنها تحتوي، لطبيعة موضوعها، على فائض رهيب للغةً. إنها تتكلم الى ما لا نهاية! من دون نزوع ما نحوالاختزال ، حتى وإنْ كانت في مَهَمَّة علمية، هي مَهمّة إنتاج البحثً الأكاديمي.

أزمة العلوم الانسانية إذن، أزمة لغوية، لا بمعنى التقنيات الاسلوبية للغة ما، بل بمعنى تداول تلك اللغة. وفي وضع تتحكّم فيه الايديولوجيا الغليظة بحركة المجتمع، تُصبح الرسائل والأطاريح الجامعية، صدىً لهذا الخطاب، لكي تكتسب الوضع القانوني!

وعنصر آخر من عناصر الازمة في الدراسات العليا للعلوم الانسانيّة، يتعلّق بفقدان الأدوات المنُتجة.وبدون هذه الادوات ستكون العمليّة برمتها شكلية حسب، وهذه الادوات هي:

١- أن يُختار الطلاب المتقدين للدراسات العليا في ضوء معايير القبول القياسيّة .
٢- أن يكون المتقدم مُجيداً للغةٍ عالمية ، نطقاً وكتابةً حقاً، لا في ضوء امتحان الكفاية[2] الشكلي.
٣- أَن تُهيّأ الدوائر العلمية، المشرفة على الدراسات العليا بجميع حلقاتها.
٤- أن تهيّأ المراجع الحديثة، وشبكة المعلومات الالكترونية، على نطاق فردي ومؤسساتي.
٥- أنْ تُهيّأ للطالب ظروفٌ مناسبة لزيادة المؤسسات الاكاديمية الاجنبيّة لمعايشة الاجواء العلمية، واكتساب الخبرات المطلوبة كجزء من مدة حصوله على الاطروحة أو الرسالة.

---

١ - من المفيد أن نذكر أنَّ العلوم الانسانية لا تقع على خط لغوي واحد.ولكنها تجتمع متقاربةً اذا ما قارناها بلغة العلوم الصرف .

٢ - تستعمل خطأ ها هنا كلمة"الكفاءة" لان الكفاءة معناها التناظر والتشابه

إنَّ نظرةً فاحصة لهذه العوامل تكشف لنا عن عدم وجودها داخل جدران جامعتنا، وجوداً حقيقياً،بل لها وجود فردي ، لا يؤسس التكوين الاكاديميّ.
فإذا ما قارنّا هذه الحالة، بفتح باب القبول على مصراعية لمتقدمي الدراسات العليا(كلية الفنون الجميلة، وحدها لديها سجّل بمائتي طالب دراسات عليا منضمّين اليها، كما أن قسم الفنون المسرحية في كلية الفنون الجميلة في هذا العام ٢٠٠٧ ضمَّ ما يربو على ثلاثين متقدماً!)أدركنا حجم الازمة في جامعة بغداد عامّة، وعلومها الانسانيّة خاصّة .وستلد هذه الازمة،اذا لم نعترض مجراها، جبلاً لا أكاديميّاً، يتربع على عرش المعرفة الاكاديميّة!
وسيساعد إغلاق أبواب الدراسات العليا، مؤقتاً، على إيقاف اندفاع الازمة، ليس هذا حسب بل سيجعل الكليات تلتقط أنفاسها جرّاء معاناتها تلك اللحمة الرهيبة والمقترح أَنْ توقف مدة خمس سنوات، وفي أثناء ذلك يتم وضع ستراتيجيّة بناء العوامل المُشار اليها آنفا، كما يتم بمحاذاة ذلك تهيئة جميع الاسباب وكسر الحلقات الروتينيّة ، من أجل عودة العقول الجامعية المهاجرة.
هذا هو التصوّر، بنحو مختزل الذي بإمكانه أوبإمكانه كما أرى، إعادة جامعةبغداد الى عصرها الذهبيّ: عصر التأسيس جامعةً للعلوم، وحريّة التفكير والمعايير المجُرّدة.

□ كلية اللغات

عام ١٩٩٥ فتحت كلية اللغات في جامعة بغداد الدراسة المسائية لقبول الدارسين فيها، تجاوزاً لشروط الدراسة الصباحية . وهُرعنا نحن ثلَّةالادباء، الى هناك لاشباع حاجتنا الى اللغة الانكليزية واللغات العالمية الاخرى. وبإصرار غريب تجاوز مشاكل العمر والارتباط الاسري والوظيفي، وقلّة الدخل، وطئت قدماي تلك البقعة التي كنت قد خطوت عليها عدّة خطوات، قبل أربعة وثلاثين عاما.
وكان أصعب ما واجهني ، هو أن أتدرّب على سلوك" الطالب" بعد أنْ تمكن سلوك المعلّم والموظف منّي بحكم تراكم السنين فوقه وتسلّط العادة!
بعض من ألقى محاضرات في اللغة الانكليزية وآدابها علينا، كان في مقتبل العمر، ولم يكَدْ يرتقي إلاّ الدرجة الاولى في السلّم العلمى. وهم الان بإزاء أساتذةٍ كهول متمرسّين، وعليهم أن يعاملوهم كطلاّب حسب!
كانت المشكلة إذن تشمل طرفي اللعبة التعليمية. ولم يكن أمامهما الاّ أَنْ يتعايشا وسط هذا الانقلاب في المُعادلة .وفعلاً تم ذلك ،لي في الأقلّ قوة الدافع ورغبتي

في الوصول الى الهدف أعاداني الى موقع" الطالب" الذي كنت أشغله منذ خمسين عاماً.
في الصباح أخرج من ثوب الطالب وأرتدي ثوب المعلم، لالقي محاظرات على طلبة الدراسات الصباحيّة في كلية الفنون الجميلة.
وبرغم قسوة هذا الانفصام اليومي، وبرغم قسوة منهج اللغة الانكليزية، وعدم وجود وسط تداولي لهذه اللغة ، سرت في طريق التعلُّم الشاق لاصل الى الهدف تخرجّتُ في كلية اللغات – قسم اللغة الانكليزية عام ١٩٩٩ بدرجة جيد جداً، لتعود بي الذاكرة الى العام ١٩٤٩ حين بدأ جلوسي أول مرة على رَحْلْة المدرسة الابتدائية وأنا الان أقرأ وأُترجم، وأواصل دراستي ذاتيّاً، وما ينقصني هو الوسط الذي أتكلم فيه العربية والانكليزية وتلك هي المفارقة!
غير أنه في هذا الحاجز من العمر لاتعود تلك المشكلة محسوسة.

□ وأخيراً

لن ألقي نظرةً الى الوراء لارى تلك المسيرة المضطربة الأخاذة في جامعة بغداد، لان الجامعة تحيط بي من كل جانب.
وكلَّ يوم أسير اليها ، كما لو أنّني أخرج من عملي في البيت الى دار سكني في الجامعة!
هذه المُعادلة المقلوبة هي صُلب الرسالة الاكاديمية.

مالك المطلبي
٢٠٠٧/٣/١٥